علماء
عاشوا
بالأمل

٢

أبو العلاء المعرِّى
الشَّاعر الفيْلسوف



بقلم: أحمد سُويلم

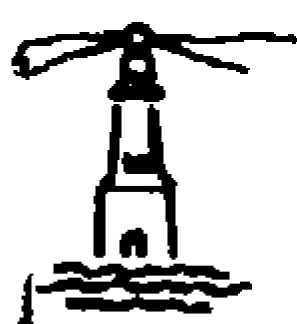
عظماء.. عاشوا بالأمل (٢)



أبو العلاء المعري
الشاعر الفيلسوف

بقلم : أحمد سويلم

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



- ما سمعت شيئاً إلا حفظته
وما حفظت شيئاً.. ونسيته!
- أنا أحمد الله على العمى
كما يحمده غيري على البصر..
فقد كفاني رؤية الثقلاء البغضاء..
- وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

أبو العلاء المعري

النبــوءة

كان ذلك فى بلدة مَعرَّة النُّعمان.. فى شمالى سوريا قبل أن ينتهى شهر ربيع الأول عام ٣٦٢هـ.

فى يوم جمعة.. والشمس تميل إلى المغيب، وفى بيت من بيوت هذه البلدة.. يعرفه الكثيرون.. لأنه بيتُ علمٍ وأدب.. يقف الشيخ عبدالله بن سليمان قلقًا... فهو ينتظِر خبرًا سعيدًا..

ولا يطول الوقت بالشيخ وأهل بيته، فهو ينتظر المولود الجديد يصيح خلف الباب.

ويرفع الشيخ وجهه ويديه إلى السماء، يَحْمد الله على هذا

العطاء.. وتدق الطبول.. ويزيَّن البيت، وتُسمع الأغانى والزغاريد، ويفرح أهل البيت بالمولود الجديد.

ويُشاهَدُ طفلٌ صغيرٌ يبلغ من العمر ثمانى سنوات يتعلق بالشيخ، فيحمله بين يديه، ويضمّه إلى صدره.. ويقبّله بين عينيه.. ثم يقول له:

- يا أبا المجد، هذا أخوك الجديد أبوالعلاء.. بارك الله فيكما..

كانوا ثلاثة إخوة، ربَّاهم هذا الأب العالم الأديب هم:

أبو المجد أكبرهم

وأبو العلاء، أوسطهم

وأبو الهيثم، أصغرهم.

وقد كان رجل علم وأدب، ولذلك سمى أبناءه بأسماء تدل على السمو والكرامة.. فأبو المجد رمز للعظمة.. وأبوالعلاء رمز للرفعة والرقى.. أما أبوالهيثم فهو رمز للسمو، لأن الهيثم معناه الصقر أو النمر..

ويبدو أن نبوءة الشيخ قد تحققت فى أبنائه - فيما بعد - فقد عاش أبو المجد أديبًا شاعرًا، وكان أبو الهيثم عالمًا أديبًا..

أما أبو العلاء، فقد قُدِّر له أن يعيش عمرًا أطول من أخويه.. وأن يحصل على شهرة أدبية وفلسفية تفوق أكثر أهل زمانه..

ولنبدأ مع أبي العلاء حكايته..





المحنـــة والتحـــدى

فى حياة كل إنسان حدث.. أو أحداث.. تمثل نقطة تحول فى حياته، ينطلق منها مندفعًا إلى طريق الأمل، أوتأخذه إلى طريق مسدود.

والعظمة لا يحصل عليها الإنسان بسهولة.. بل الطريق إليها صعب شاقّ..

ولم يكد أبوالعلاء يبلغ الرابعة من عمره حتى أصابه مرض الجدرى.. وترك أثرًا واضحًا فى وجهه وفى نفسه وفى حياته.. إذ تسبب فى فَقْد بصره وهو صغير، فراح يبكى، ويكتب هذا



أصاب أبوالعلاء مرض الجدرى فى سن الرابعة وتسبب فى فقد بصره وترك أثرا فى وجهه وفى حياته

الحادثُ المؤلم أولَ سطر من قصة صِراعه مع الحياة والأمل والتحدى.

لقد قال أبو العلاء عن هذه الأيام: لم أكن أعرف من الألوان إلا اللون الأحمر.. لأنى ارتديت ثوب الجدرى.

ويحزن الأب الشيخ.. فقد كان يتمنى لولده السعادة فى حياته.. لكن الشيخ كان يؤمن بالله والقَدَر.. فأقبل على ولده يلقنه العلم والأدب منذ طفولته، وظلَّ يرعاه طويلاً.. ويقوده إلى حُبّ الناس وحُب الشِّعر والعلم.

ولم يكتف القَدَرُ بما أصاب أبا العلاء.. فقد كان صبيًّا دميم الوجه.. على عينيه بياض من أثر الجدرى.. وكأنه ينظر بإحدى عينيه دون الأخرى.. مما جعله يخطو إلى الحياة وبينه وبين الدنيا هذا الحجاب الأصم من الظلام والشقاء .

يذهب به والده إلى شيوخ (المَعرَّة) بلدته فيقرأ القرآن الكريم ويحفظه مبكرًا.. ويستمع إلى أحاديث الرسول الكريم ﷺ.. ويلفت ذكاءُ الطفل نظرَ العلماء، وفقهاء وأدباء زمانه، ويتعلم من أبيه الشيخ أن العقل هو الأداة الوحيدة التى يعتمد عليها الإنسان لشق طريقه فى الحياة، فيدرب عقله وذاكرته على الحفظ، حتى اشتُهر - وهو صبىٌّ - بملكة الحفظ والذكاء..

ويحكى عنه حكايات كثيرة.. تدل على أنه كان يحفظ الشيء من أول مرة.. ومن هذه الحكايات الطريفة أن أهل حلب قد سمعوا بذكاء أبي العلاء، وهو لا يزال صبيًّا.. فسافر إليه جماعة منهم يمتحنونه فى بعض المسائل، فقال لهم أبو العلاء: مرحبًا بكم يا أشراف حلب وأدباءها.. هل لكم فى ارتجال الشعر على قافية واحدة؟. قالوا: نعم.. فبدأ أهل حلب يُنشدون، وكلما أنشد أحدهم بيتًا.. رد عليهم أبو العلاء ببيت آخر على نفس القافية.. حتى صمتوا.. فقال لهم أبو العلاء: ما بالكم تصمتون.. هل عجزتم أن يُنشد أحدكم بيتًا على قافية يحبها هو؟. قالوا: فافعل أنت ذلك. فأخذ يرد عليهم أبو العلاء حتى تغلّب عليهم جميعًا.

ورحل يومًا إلى أنطاكية فى تركيا.. وتردد على مكتبة فيها.. وكان أمين المكتبة يتعجّب من أمره.. فهو صبيٌّ فاقد البصر.. يأتى له كل يوم ويطلب منه أن يقرأ له فى كتب المكتبة.. ثم بعد أن ينتهى من القراءة.. يجلس أبو العلاء فيعيد عليه ما قرأه كلّه حرفًا حرفًا.. لا يخطئ.. ولا يقف لحظة واحدة..

وحُكى عنه كذلك.. أن رجلًا من اليمن وجد كتابًا فى اللغة تنقصه بعض الأوراق، ولم يستطع أن يعرف اسم الكتاب.. فحمل الرجل الكتاب فى موسم الحج ليسأل عنه من يلقاه



كان الصبى أبوالعلاء يطلب من أمين مكتبة أنطاكية في تركيا أن يقرأ له
الكتب وكان أبوالعلاء يعيد عليه ما قرأ حرفًا حرفا

من أهل الأدب والعلم.. حتى دلّه واحد منهم على أبي العلاء، فسافر الرجل إلى الشام حتى وصل إلى المَعرَّة.. والتقى بأبي العلاء.. وقرأ عليه شيئًا من الكتاب، فقال له أبو العلاء: هذا الكتاب اسمه كذا.. ومؤلفه فلان بن فلان. ثم ظل أبو العلاء يملي من ذاكرته على الرجل ما نقص من الكتاب، حتى بلغ الأوراق التي معه.. وأكمل بذلك نسخة الكتاب.

لقد درّب أبو العلاء ذاكرته على الحفظ.. وعقله على الالتقاط السريع.. وفي ذلك يقول أبو العلاء:

«ما سمعتُ شيئًا إلا حفظته، وما حفظت شيئًا ونسيته».

وأعجب ما روى عنه في هذا المجال ما قصه أحد تلاميذه.. قال إنه كان يجلس بين يدى أبي العلاء في مسجده بمعرة النعمان يقرأ عليه شيئًا، فدخل المسجد صديق قديم لتلميذه.. فاستأذن التلميذ أبا العلاء في القيام للتحدث إلى صديقه.. فأذِن له أبو العلاء، وكلم التلميذ صديقه بلغة غير عربية بعض الوقت.. ولما رجع التلميذ إلى أبي العلاء سأله: بأى لسان كنتما تتكلمان؟!.

فقال التلميذ: كنا نتكلم بلغة أهل أذربيجان.

فقال أبو العلاء: ما عرفت اللسان ولا فهمته... ولكنى

حفظت ما قلتها: ثم أعاد أبو العلاء ما قالاه بدقة لا يزيد عليه ولا ينقص منه.

ومن الحكايات التى تدل على ذكاء أبى العلاء: أنه كان يجلس إلى جماعة من الأدباء يقرأ شِعرًا.. فدخل شاعر يسمى أحمد بن يوسف.. فقرأ قصيْدة من شعره، وحينما انتهى الرجل من قراءته قال له أبوالعلاء: أنت أشعر مَنْ بالشام..

وتمر الأيام.. ويرحل أبو العلاء إلى بغداد.. ويجلس أيضًا إلى جماعة من الشعراء يسمعهم.. فدخل أحمد بن يوسف هذا فأنشد قصيدة.. وبعد أن انتهى الرجل من قراءته قال له أبوالعلاء: وأيضًا أشعر مَنْ بالعراق..

وبهذا عرف أبو العلاء أحمد بن يوسف من صوته، ومن جودة شعره، ولم ينس أنه استمع إليه منذ سنوات بالشام وقال له: أنت أشعر منْ بالشام.. فيكمل أبو العلاء فى بغداد حديثه واعترافه بشاعريته حين يقول له: وأيضًا أشعر من بالعراق..

الموقف والطموح

ويُقبل أبو العلاء على الحياة.. يفتح ذراعيه.. وقلبه.. وعقله، ويتحدى ظروفه، ويتخطى محنته.. ويخوض كل طريق يسير فيه المبصرون..

ولقد اهتدى أبو العلاء إلى طريق التحدى والطموح يعوّض به ما أصاب عينيه، لم يكن يقبل من أحد مساعدة أوسيطرة أو معونة أوشفقة أو وصاية وهو يقول فى ذلك:

ومالى لا أكون وصىَّ نفسى ... ولا تعصى أمورى الأوصياء

وبلغ من إقباله على الحياة والعناد فى خوض كل طريق صعب، أنه استطاع فى صباه أن يمارس ويتقن فنون اللعب..

فقد شوهد فى صباه يلعب الشطرنج والنرد كما يلعب المبصرون.. ويتحدث عنه أحد المؤرخين فيقول:

رأينا فى مَعرَّة النعمان عجبًا.. رأينا أعمى شاعرًا ظريفًا يلعب الشطرنج والنرد، ويمارس كل فن من الجدّ والهزل.. يسمى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى.. كما يَحْمَدُه غيرى على البصر.. فقد كفانى رؤية الثقلاء البغضاء..

وروى عنه فى ذلك قولُه أيضًا:

قالوا: العمى منظرٌ قبيح قلت: بِفقدانِكُم يهونُ
واللهِ ما فى الوجود شىء تَأْسَى على فقدِه العيونُ

والبيتان شهادة صادقة على طموحه وتحدّيه وإصراره على الحياة، واعتداده بنفسه وكرامته..

وحين كانت تضمه مجالس العلم والأدب.. كانت موهبته تضعه فى المقدمة فيباهى بذلك فى عناد وتفوق:

وإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائلُ

لم يستسلم أبو العلاء لمحنته القاسية.. بل استطاع بمقدرته أن يتغلب عليها.. واستطاع بعزيمته أن ينمِّى موهبته فتباهى بطموحه ونباهته وذكائه.. ونافس المبصرين فى كل مجال،

لا يتكاسل عن طلب العلم، فهو ظمآن إليه لا يرتوى، جائع لا يشبع ويعلن ذلك فى رسالة له:

«إنما أنا رجل بُلِىَ بالصَّدى - أى العطش - لا يجد أبدًا موردًا.. فهو ظمآن أبدًا..»

ولا ينقطع أبو العلاء عن الناس ولا ينعزل، فيجلس إليهم، ويشارك بأشعاره فى تسجيل الأحداث والمعارك التى يخوضها العرب ضدّ أعدائهم...

ويُدهشُ أبو العلاء مستمعيه بشعره.. ويحيِّرهم حينما يتحدث عن الطبيعة وألوانها، وعن الليل والنهار.. بما لا يستطيع شاعرٌ مبصر أن يصل إلى دقة رسمه وتصويره.

وهكذا كان أبو العلاء: لم ينهزم وقد ضاقت الدنيا بطموحه واعتزازه بنفسه وبموهبته، بل أخذ يتحدى أهل زمانه فى المناظرة والحديث والذكاء.. واتصل بالحياة العامة عن قرب.. وكتب الشعر فى أغراض كثيرة.. فمدح دون أن يأخذ مقابلًا لهذا المدح، كما يفعل شعراء زمانه.. وكتب الرثاء والهجاء والغزل والفخر بصدق شديد.. وانفتح على الدنيا وجعلها فى قبضة يده.



كـان أبوالعـلاء يدهش مستمعيـه بشعره، ويحيـرهم حينما يتحـدث عن
الطبيعة وألوانها وعن الليل والنهار فى دقة

مزيدًا من الأحـزان

وتمضى الأيام بأبى العلاء، وهو مبتسم لها، مقبل عليها، ويحوّل ليله نهارًا.. وصمته حديثًا.. ومحنته عزيمة وكبرياء..

لكن الأيام لم تتركه يصنع مصيره بنفسه، فحينما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره.. أصيب بموت أبيه المعلم- عبدالله- ويفقد الشاب الضرير أبًا رحيمًا.. ومعلمًا صديقًا، كان يعينه على محنته.. ويمنحه طاقة من المقاومة والاحتمال..

ماذا يفعل أبو العلاء؟! هل يلقى سلاحه.. ويسلّم بضعفه.. أو يشعل وجدانه أكثر بنار الأمل والتحدى؟ لم يكن أمامه إلا أن يستأنف صراعه مع الحياة، وإن كان هذا

الاختيار من أشق الأمور على نفسه.

وكانت المصيبة كبيرة هزَّت وجدانه من الداخل.. فقرر أن يسافر إلى بغداد.. ليس هروبًا من مصير.. وإنما ليطلب مزيدًا من العلم والأدب.. وليطرق أبوابًا أخرى للتحدى والأمل.

ودخل على أمه يريد أن يخبرها بعزمه على السفر، ويستأذنها بحجة أنه بعد فَقْد أبيه يريد أن يختبر طاقته على الصبر، ومواجهة الحياة.

وأدركت أمه أنه جاد فى عزمه لن يتردد.. فأذنت له..

ويودع أبو العلاء أمه..

ويودع أهل المَعرَّة إلى سفر مجهول.. لا يدرى من أمره شيئًا.

ويطول به الطريق إلى بغداد.. إلى أن وصل إليها..

ويحدث موقف غريب يوم وصوله إلى بغداد.. فقد حقد عليه الكثيرون وأهانوه.. بل وجدنا بعضهم قد ذهبوا إليه لامتحانه، فأحضروا إليه سجلات الخراج، وأخذوا يقرءون عليه الأسماء والأرقام ساعة من الزمان، ثم طلبوا إليه أن يعيد ما سمع..

وأعاد أبو العلاء ما سمعه اسمًا اسمًا ورقمًا رقمًا.. ونجح فى

هذا الامتحان الذى كان بداية لمعارك خفية ضده من علماء بغداد..

ويدرك أنه لابد أن يعود إلى «المعرَّة»، ولم يكمل عامين بعيدًا عن بلدته..

ويعود الرجل من بغداد...

طريق العودة كان نفسه طريق الذهاب..

وكان قد مرَّ فى طريقة إلى بغداد بشجرة كبيرة، فقال له من يقوده:

– طأطىء رأسك، حتى لا تصطدم بالشجرة.

ففعل.. حتى إذا عاد من نفس الطريق.. بعد ما يقرب من عامين.. مر بنفس الموضع.. فطأطأ رأسه دون أن ينبهه أحد إلى ذلك فسئل أبو العلاء فى ذلك.

فقال: هنا شجرة..

قالوا له: ما هنا شجرة ولا شىء..

ثم حفروا الأرض فوجدوا أصل الشجرة مقطوعًا.

يعود أبو العلاء وهو غير راضٍ عن أحوال بغداد.. ليجد فى انتظاره مفاجأة مؤلمة:

كان قد شاهد فى أحلامه وهو عائد إلى المعرَّة أن أحد



طأطأ أبوالعلاء رأسه ليمر أسفل نفس الشجرة التى مر أسفلها من عامين

أضراسه الأربعة قد سقط.. وذكر أمه المريضة.. لكنه أبعد هذا الأمر عن خاطره.. ورفض تفسير الضرس بالأم، إذ هو يستطيع أن يعوض ما فقد من أعضائه أما أمه فلا عوض عنها..

ولكنه يعود.. ليجد المفاجأة المؤلمة.. إن أمه قد رحلت عن الدنيا فعلاً ولحقت بأبيه فيقول:

«ياسلوة الأيام موعدك الحشر، موعد والله بعيد.. لكل أجل كتاب، وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد جُدد.. !»

ويصيبه القدر بعد ذلك بقليل، بفقد أخيه الأصغر أبي الهيثم.. ويتتابع الراحلون من أهله وأحبابه..

* * *

الإبداع والعبقرية

ويخلو أبو العلاء لنفسه.. مفكرًا فى أمره:

لقد فَقَد البصر وهو صغير.. وفقد أباه وهو شاب.. وفقد أمه فى السابعة والثلاثين.. وفقد كثيرًا من أهله وأحبابه. ثم هاهو ذا يحاول الانشغال بتلقى العلم فى بغداد.. فيلاقى من أهلها الحسد والبغض والكراهية.. ويفضل العودة حزينا إلى المعرَّة.. ليزداد حزنًا على حزن، لقد طال ليله، وذاق المرارة فى كل طريق مشى فيه، وهو يعبِّر عن ذلك فى «الفصول والغايات» فيقول:

– ما أضيق الدنيا علَّى..

- إن جناحى مهيض - أى مكسور - والله مُنهضُ المناهضين - أى مع الذين يقاومون العجز.

- الله ملك الملوك وأنا معترف مُقرّ...

إلـــه الأنـــام ورب الـــغـــمام   لنـــا الفقـــر دونـــك والملك لـــك

* * *

لعمرى لقد جاوزتُ خمسين حجّـة   وحسبى عشرٌ فى الشدائد أوخمسُ

* * *

رب متى أرحـل عن هـذه الـدنيـا   كـــأنى قـــد أطـــلت المـــقـــام

لم أدْرِ مـــا نـــجـــمـــى ولـــكـــنـــه   فى النحس مذ كان جـرى واستقام

* * *

وما بعد مرّ الخمس عشرة من صِبا   ولا بعـــد مـــرِّ الأربعـــين صبـــاءُ

ماذا تفعل يا أبا العلاء؟

كيف لك أن تواصل حياتك ورسالتك..؟

وبعد تفكير طويل.. ينتهى إلى أن يجلس فى بيته لا يخرج منه أبدًا.. ويعكف على الدرس والعلم والأدب والعبادة، ورأى ذلك خيرًا من مجالسة الناس فى الطرقات، والتحدث إليهم فيما لا ينفع..

وتبدأ رحلة أخرى لأبى العلاء طوال ما يقرب من خمسين

عامًا حبيسًا بين جدران أربعة.. بين أوراق شعره وأدبه.. وتلاميذه ومريديه..

تبدأ هذه الرحلة المنكمشة بإعلان صادر من أبي العلاء:

هـذا زمـان ليس فى أهله إلا لأن تهـجـره أهـلُ
حان رحيل النفس عن عالم مـا هو إلا الغـدرُ والجهلُ

هو رحيل إذن عن عالم الجهل والغدر والكذب والنفاق.. إلى عالم العلم والمعرفة والصدق.. عالم الكلمة.. والفكر..

دعنا نقطع عليه خَلوته.. وقد أصبح رهين المَحبِسَيْن: العمى والجدران الأربعة.

هذا أبو العلاء وحيدًا.. لا يبرح بيته.. يرتدى من الثياب ما يستره..

يجلس فوق حصير متواضع، يبدأ فى طريق الزهد والمعرفة.. يودّع الدنيا وما بها من مباهج فاتنة موجهًا عزيمته إلى طريق أجدى وأنفع.. طريق العلم والدرس والمجاهدة.

ونظل مع أبي العلاء.. وهو لا يترك مكانه طوال خمسين سنة، غير مرة واحدة.. خرج متشفعًا لإيقاف قتال على حدود بلدته..

ويكتب أبو العلاء.. أو يكتب عنه تلاميذه أكثر شعره

ورسائله، نذكر على سبيل المثال:

كتاب «تضمين الآى» ويضم كثيرًا من المواعظ والآيات القرآنية..

وكتاب «سجع الحمام» وهو حديث فى الزهد على لسان حمامة..

وكتاب فى الأمثال.. على ألسنة الحيوانات..

وكتاب «سيف الخُطبة» جمع فيه خطب الجمعة والعيدين..

وكتاب «الفصول والغايات» وهو يجمع نظراته فى الحياة..

وغير ذلك من الرسائل التى تبادلها مع غيره من الأصدقاء..

ويهمنا الآن.. أن نشير إلى هذه الرسالة العظيمة التى ألفها أبو العلاء تحت عنوان: رسالة الغفران.

ما هى إذن هذه الرسالة..؟

كلٌّ منَّا يذكر جيدًا قصة الإسراء والمعراج، هذه الرحلة التى قام بها رسولنا الكريم ﷺ من مكة إلى بيت المقدس بالشام يصحبه فيها جبريل عليه السلام، ثم يصعد الرسول الكريم ﷺ إلى السماء، ويشاهد معجزات.. يشاهد الجنة والنار.. والنعيم والجحيم.. وألوان الثواب والعقاب.. ثم يعود



أصبح أبى العلاء رهين المحبسين العمى والجدران الأربع وتفرغ للعلم والزهد

فى نفس الليلة إلى بيته فى مكة المكرمة..

هذه الرحلة العظيمة تأثر بها كثير من الكتّاب فى الشرق والغرب.. إنهم يتخيلون رحلات مماثلة إلى عالم السماء.. يقومون بها ويكتبونها.

فمن هؤلاء فى الشرق:

أبو يزيد البسطامى.. وفريد الدين العطار.. وابن عربى.. ومحمد إقبال، ومنهم فى الغرب: جون ملتون.. وجوته.. ودانتى..

وكان أبو العلاء واحدًا ممن دخلوا هذا الميدان الصعب.. فسبق به الكثيرين فى كتابه: رسالة الغفران...

ولقد أملي أبو العلاء هذا العمل وهو فى سن الستين، والرسالة تعبر عن طموحه وآماله، وعن أشواقه المكبوتة.. إنها رحلة ترك فيها لنفسه حرية الحركة والتنقل.. حتى إننا نتعجب لأبى العلاء الذى فقد بصره يشاهد ويصور.. ويلتقط ويصف.. ويتجول ويتحدث وكأنه لم يفقد بصره من قبل..

وكما اتخذ الرسول الكريم جبريل صديقًا له.. اتخذ أبو العلاء شاعرًا صديقًا له يسمى «ابن القارح».. ليزور معه الجنة والنار..

ويدعونا أبو العلاء لدخول الجنة.. ونشاهد القصور

والبساتين والأشجار.. وأنواع الفواكة والثمار.. والطيور المختلفة.. منها ما يشدو فوق الأشجار.. ومنها ما يحلق فى الفضاء.. ومنها ما يسبح فوق ماء الأنهار.. ومنها ما يمشى مطمئنًّا آمنًا فوق الخضرة الممتدة.. ونشاهد فى الجنة كذلك الينابيع والأنهار.. والأحجار الكريمة الثمينة الملونة.. والخضرة التى تملأ الجنة هنا وهناك..

ويتحدث أبو العلاء إلى أصدقائه الشعراء فى الجنة.. ويتحاور معهم حول الشعر وقضايا اللغة والدين.. وكيف عبَّروا عن هذه القضايا فى أشعارهم.. حتى دخلوا الجنة.. وجزاهم الله بالنعيم..

ثم يدعونا أبو العلاء إلى زيارة الجحيم:

إنه يطوف به.. ويرى الصورة المقابلة للجنة.. يرى ألوان العذاب بالنار.. وبالماء المغلى.. والسياط الملتهبة وغيرها .. ويرى أهل النار.. من الشياطين والعصاة من البشر..

ويلتقى مع الشعراء الذين عوقبوا فدخلوا النار.. لأنهم كفروا.. وعبَّروا فى شعرهم عن هذا الكفر.. أو دعوا إلى النفاق والإلحاد..

لكنّ أبا العلاء لا يطيق أن يمكث فى النار كثيرًا.. فيعود

مسرعًا إلى الجنة ليمكث فيها حتى نهاية الرحلة.. ثم يعود مرة أخرى إلى الأرض.

وفى هذه الرحلة ألوان من الأدب والعلم والثقافة.. واللهو والجد.. والجدل والحوار.. ووصفٌ لألوان الطعام والشراب.. والحور العين.. والحيوان والطيور، والمشاهد الجميلة الملونة التى يتحدث عنها بقدرة وعبقرية.. ويرسمها بريشة فنان مبدع..

ونصحب أبا العلاء قليلا وهو يصف بعضًا من المشاهد التى مرّ بها..

يقول أبو العلاء:

تمر مجموعة من أوز الجنّة، فتقف فى بستان وكأنها تنتظر أمـرًا - إذ من عادة طـير الجنة ألا يتكلم- فيسـأل الأوزَّ - ابنُ القارح- صديق أبى العلاء:

ما شأنكن؟

فيقول الأوز: أُمِرْنا أن نجىء إلى هذا البستان فنغنى.

فيقول ابن القارح: على بركة الله!

وهنا تنتفض مجموعة الأوز وتتحول إلى فتيات جميلات يحملن فى أيديهن آلات موسيقية مختلفة، ويرتدين أثوابًا زاهية تلمع فى ضوء الشمس.. ويطلب منهن ابن القارح أن يغنين

شيئًا من الشعر.. فيفعلن، ويكبّر ابن القارح، ويحمَد ربه على قدرته، ويسأل واحدة منهن:

- ألم تكونى أوزة.. أخبرينى بربك كيف تعلمت الشِّعر.. وكيف ملكت هذا الصوت الجميل؟!

فتقول: إن ما تراه وما تسمعه شيء لا يذكر من قدرة الله، سبحانه يحيى العظام وهى رميم...

ويسير أبو العلاء مع صديقه.. فيمر بذئب يفترس ظباء، واحدة بعد الأخرى دون توقف، فسأله ابن القارح: من تكون أيها الذئب؟!

قال: أنا ذئب كنت أعيش أيام فجر الإسلام، وكنت مفترسًا قويًّا.. كلما هَجَمتُ على الغنم واجهتنى كلابُها التى تحرسها فرجعت من حيث أتيت خائبًا.. وفى يوم جلست إلى نفسى أقول: أيها الذئب.. لن تحصل على واحدة من الغنم.. وربما صادك صاحبها بحربة أو سهم، فامكث فى بيتك حتى يشاء الله.. فودعت الدنيا وأنا جائع.. ودعا لى مسلم مؤمن.. فدخلت الجنة آكل من ظبائها ما أشاء مكافأة لى على صبرى وبُعدى عن إيذاء الغير وافتراس الغنم..

ثم يتناول أبو العلاء عادات الطيور والحيوان فى مشاهد قصيرة.. منها:

- أن الحمام يحدث صوته المعروف، لأنه يبكى على حمامة وليدة قضى عليها طوفان نوح.. وبكاء الحمام دليل على وفائه لهذه الذكرى القديمة..

- وأن صغار الحيوان تبغض كباره، لأن كبار الحيوان تحصل على رزقها قبل صغاره..

- ولو فكر من يذبح الدجاجة قبل ذبحها.. لأدرك أن الدجاجة تتمنى أن تتزوج ديكًا يحميها ويحبها..

- والنهر يربى أسماكه.. لكى يصيدها الصياد بلا تعب.

* * *

سلوك العظماء

إن عالم أبى العلاء عالم جذاب ممتع عجيب.

وهذا الرجل برغم محنته.. وبرغم ما أصابه من المصائب المتوالية.. استطاع أن يتغلب على آلامه.. حتى آخر عمره..

وكان لابد أن يواجه حسد الحاسدين، وبغض الحاقدين..

وحينما لم يجد الحاسدون شيئًا يعيّرونه به.. ادّعوا أنه منسوب إلى بلدته «المعرَّة» أى أنها عار عليه، لأنه فاقد البصر مشوَّه الوجه. ونسوا التاريخ الصحيح لهذه البلدة.. فقد أسسها النعمان بن بشير الأنصارى.. وكان واليًا على حمص فى عهد معاوية بن أبى سفيان..

وكانوا يتعجبون له وهو يرفض عطاء الحكام وأموالهم.. ويرفض أن يمدحهم بما ليس فيهم فهو يقول:

«لست أريد فى رزقى زيادة.. ولا أوثر لسقمى عيادة»

إنه لا يريد أكثر من رزقه.. ولا يريد من أحد أن يشفق عليه ويرعاه، لأنه أعمى..

بل يروى عنه كذلك أن حاكم مصر أرسل إليه يريد أن يضمه إلى بلاطه.. ويعطيه أموالاً كثيرة.. فرفض أبو العلاء هذا العرض واعتذر.

وحين عرض عليه أحد الحكام ما يشاء من بيت المال.. لم يقبل أبو العلاء منه شيئًا، وآثر أن ينقطع للعلم والأدب.. وألزم نفسه بالتقشف والرضا.. لأنه كان لا يريد من حياته غير العلم والدرس..

وكان أبو العلاء -برغم رقة حاله- لا يأخذ على العلم أجرًا. وقد أبت عليه أخلاقه أن يقبل من تلميذه الخطيب التبريزى ثمن إقامته عنده..

وحكاية ذلك أن الخطيب أراد أن يدفع لأبى العلاء مالاً نظير إقامته التى طالت فأعطاه صرَّة فيها ذهب.. فأخذ أبو العلاء الصرة.. واحتفظ بها..

وكان الخطيب يظن أن أبا العلاء ينفق عليه من ذهبه مدة إقامته.. فلما حان وقت رحيله.. ودعه أبو العلاء وأعطاه صرته كما هى لم تمس..

وأخذ الحاسدون يرمونه بالكفر والإلحاد.. ويفسّرون أشعاره تفسيرات خاطئه لعلهم ينجحون فى التخلص منه..

سأله يومًا أحد القضاة:

- ما هذا الذى يروى عنك ويحكى يا أبا العلاء؟!

قال: حسدونى فكذَبوا علىَّ وأساءوا إلىَّ..

قال القاضى: على ماذا حسدوك، وقد تركتَ لهم الدنيا والآخرة؟!

قال: كما ترى.. تركت لهم الآخرة أيضًا .. الآخرة أيضًا (وظل أبو العلاء يكررها..) وكان السبب فى هذه الأحقاد، أنه كان لا يريد أن يكون منافقًا مثلهم .. ولم يشأ أن يتحدث بغير الصدق والحق.. بل شاء أن يلقى ربه عفيفًا فقيرًا..

ولم ينقطع أبو العلاء عن صَلاته وصومه وتفكره فى الله والوجود:

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده بنصح فإنّا منهمو برءاء

الله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صارا

وكان دائم الاستغفار عن ذنوبه وعن سقطات لسانه:

وما أنا يائس من عفو ربي على ما كان من عمدٍ وسهْوِ



الرحيل والخلود

ظل أبو العلاء دارسًا عابدًا مبدعًا حتى آخر يوم فى حياته.. وفى ليلة صامتة هادئة.. وفى شهر ربيع الأول عام ٤٤٩ هـ.. كان لدى أبى العلاء طبيبُ المعرَّة.. يحاول أن يداويه دون جدوى.. لقد فقد سمعه إلى جانب بصره.. وعجز عن القيام والسير.. لكن عقله لم يعجز عن شىء..

كان منذ قليل يُملى على تلميذه آخر كلماته..

ويدخل عليه قاضى المعرَّة..

وينصحه الطبيب أن يشرب كوبًا من الدواء فيأبى..

ويلح الطبيب.. ويلح القاضي.. ويلح تلاميذه ومريدوه.. فينشدهم:

أعَبْدَ اللهِ، خيرٌ من حياتى وطولِ ذِمائِها.. موتُ مريحُ
تعلِّلنى لتسقينى.. فذرْنى لعلى أستريحُ وتستريحُ

إن طول البقاء والحياة لم يعد يضيف شيئًا.. هكذا يتمنى أبو العلاء أن يستريح.

ويرحل الشاعر الفيلسوف العبقرى.. وقد بلغ من العمر خمسًا وثمانين سنة، .. فيقف على قبره شعراء بعدد سنوات عمره.. يبكون ذكاءه وعبقريته.. ويرثون قدرته على مواجهة الحياة، ويظل المقرئون يقرءون القرآن لمدة سبعة أيام على قبره.. ثم لا يكون له عند وفاته غير كلمات قصيرة، يوصى بها أن تُكتب على قبره:

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

وكان يقصد أنه لم يأت بأطفال إلى الحياة، يتعبون كما تعب!

حقًا.. جحدوه أديبًا.. وفيلسوفًا.. ولاقى من الصعاب والمخاطر ما تعجز عنه الجبال.. لكنه كان يبتسم دائمًا لمعاناته ومأساته.. وصوته يردد دائمًا هذه الكلمات التى تريح وجدانه:

«أولو الفضل فى أوطانهم غرباء».

لم يجْن أبو العلاء على أحد.. لكنه كان مثلاً نادرًا خالدًا للتحدى.. وعبور أكثر من محنة.. وكان مبتسمًا للحياة برغم كل الصعاب.. وكان محبًّا للناس، متعبدًا لله.. طوال خمس وثمانين سنة. !



الفهارس

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٩٤ / ٥٠٤٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4560 - 7	ISBN

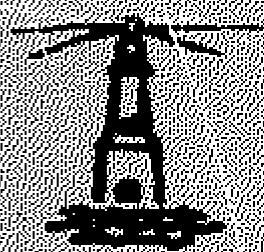
٧ / ٩٤ / ٧٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

عظماء عاشوا بالأمل

• نماذج من العظماء العباقرة الذين فقدوا واحدة أو أكثر من حواسهم.. لكنهم ضربوا المثل فى التمسك بالأمل.. وتحدى هذا الفقد.. والإصرار المتميز.. ربما أكثر من الأصحاء.

١ – توماس أديسون	٢ – أبو العلاء المعرى
٣ – فرانكلين روزفلت	٤ – محمود أبو الوفا
٥ – هيلين كيلر	٦ – صبحى الجيار
٧ – لويس برايل	٨ – حسان بن ثابت
٩ – إليزابيث براونج	١٠ – الجاحظ
١١ – عبدالرحمن بن عوف	١٢ – أوجست رينوا
١٣ – حسين القبانى	١٤ – بيتهوفن



دار المعارف